أحد القصور

القبور المنحوتة في الصخر

مدائن صالح... أهم معلم أثري في المملكة العربية السعودية

أنشودة الحجر وأعجوبة التاريخ والآثار

مدائن صالح أو اسمها القديم مدينة الحجر، وهي موقع اثري في المملكة العربية السعودية وهي من اهم المواقع الاثرية في الجزيرة العربية والشرق الأوسط وقارة اسيا وتقع في محافظة العُلا التابعة لمنطقة المدينة المنورة وكانت عاصمة مملكة لحيان الشمالية في شمال الجزيرة العربية والحجر اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة المنورة وتبوك، والحجر كانت تعرف بمدائن صالح أو قرى صالح، وهو مكان موجود من قبل عصر الإسلام في منطقة العلا، داخل منطقة المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية.

وتقع الحجر على بعد 22 كم شمال شرق مدينة العلا عند دائرة عرض 26.47 شمالاً، وخط طول 37.53 شرقا ويطلق الحجر على هذا المكان منذ اقدم العصور، ويستمد الحجر شهرته التاريخية من موقعه على طريق التجارة القديم الذي يربط جنوب شبه الجزيرة العربية والشام، ومن أصحابه المعروفين بقوم ثمود الذين جاء ذكرهم في القرآن بانهم لبوا دعوة نبي الله صالح، ثم ارتدوا عن دينهم، وعقروا الناقة التي ارسلها الله لهم آية.

جبل إثلب بشكل مثير

دقة النحت وجماله في الواجهة

وحسب علم الآثار، فقد شكلت مدينة الحجر من قبل المعينيين والثموديين في الألفية الثالثة ق.م، ومن بعدهم سكنت من قبل اللحيانيين في القرن التاسع ق.م، وفي القرن الثاني ق.م احتل الأنباط مدينة الحجر، واسقطوا دولة بني لحيان واتخذوا من بيوت الحجر معابد ومقابر، وقد نسب الأنباط بناء مدينة الحجر لانفسهم في النقوش التي عثر عليها، ولكن مدينة الحجر تحتوي على كمية هائلة من النقوش المعينية واللحيانية التي تحتاج لدراسة رموزها وفكها، ومناطق العلا وديدان والخريبة هي آثار لحيانية واقدمها ربما يعود إلى 1700 ق.م حسب الكتابات، وقد دمر جزء منها بزلزال.

أما مدينة الحجر فهي آثار المعينيين والتجار الثموديين الأوائل القادمين من جنوب الجزيرة العربية، وفي 2008 اعلنت منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة ان مدائن صالح موقع تراث عالمي، وبذلك يصبح أول موقع في السعودية ينضم إلى قائمة مواقع التراث العالمي.

وقد اثبت الباحثون أن الأنباط هم أول من استوطن الحجر «مدائن صالح»، وقاموا بتعميرها، ويرى الباحثون أن أصل الأنباط من الجزيرة العربية، وذكر المؤرخ ديودور الصقلي أن الأنباط كانوا بدوا رعاة لا يعرفون الزراعة أي أنهم غير مستقرين، وأنهم لا يشربون الخمر، وأرضهم أغلبها صخرية وعرة.

ومن المعلوم أن الأنباط قد أسسوا مملكة ضخمة امتدت من عاصمتهم البتراء «سلع» شمالا إلى الحجر «مدائن صالح» جنوبا، ولقد كان أقدم دليل يشير إلى وجود الأنباط يعود إلى القرن التاسع الميلادي، وكان بداية نشأة مملكتهم في مدينة سلع المسماة حاليا بالبتراء، وهي العاصمة السياسية للأنباط، وبعدها قرروا السيطرة على طريق التجارة القديم، فأسسوا عاصمتهم التجارية «الحجر»، ومن خلال النقوش النبطية المؤرخة في مدائن صالح نستطيع تحديد العمر الزمني الذي ساد فيه حكم مملكة الأنباط، إذ إنه يبدأ من بداية القرن الأول قبل الميلاد إلى منتصف القرن الثاني الميلادي.

وقد واجه الأنباط العديد من المشاكل السياسية والاقتصادية ولاسيما مع الإمبراطورية الرومانية، ولكن أكبر مشكلة واجهتها مملكة الأنباط وادت إلى سقوطها واضمحلالها في النهاية هي اكتشاف الرياح الموسمية في القرن الأول قبل الميلاد التي تسببت في اعتماد الدول وأصحاب القوافل التجارية كلية في نقل بضائعهم عن طريق البحر الأحمر مما ادى ذلك الى تاثر الحجر التي كانت تعتمد على مرور القوافل باراضيها واخذ الضرائب منها.

والأنباط شعب قديم استقر في شمال غرب الجزيرة العربية، وكانت لغتهم شكلاً من أشكال الآرامية المتأخرة، مما يظهر تأثرًا كبيرًا بالعربية، وقبل ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم بسبعمائة سنة امتدت مملكة الأنباط من دمشق إلى البحر الأحمر، وفي عام 63م ضمتها روما، وفي عام 106م حولها الإمبراطور تراجان إلى مقاطعة رومانية مع بقية الجزيرة العربية.

ويعزى نجاح الأنباط بشكل كبير لوجود أفضل مهندسي العالم القديم عندهم، فقد استطاعوا تذليل مصادر المياه في المنطقة من خلال شبكة من الخنادق والقنوات والآبار التي كانت تسمى قنوات، وما زال بعضها يستخدم إلى اليوم وتظهر بقايا مدائن صالح الأعمال الهندسية الرائعة التي اشتهروا بها، وسوف تجد هنا أكثر من 131 قبرًا ضخمًا منحوتا على صخور واقفة منفردة وسط عالم متموج من الرمال، وجزر من صخور الحجر الرملي المتحللة التي تآكلت وتموجت لتصبح أشكالاً منحوتة رائعة، وعندما تصل لهذه المدينة الأثرية – شمال غرب المملكة العربية السعودية، بين تبوك والمدينة– بعد الظهر فستبصر منظر الهضاب الذهبية، وخلفها من بعيد حرة عويرض بارضها البركانية، وهذا أحد أفضل المشاهد في الجزيرة العربية وأسماء المعالم المحلية بدوية، وليست نبطية، غير أن علماء الآثار استخدموها، إذ عرفت مدائن صالح في العصور القديمة باسم الحجر، أو باسمها العربي «حجر»، وتسير أغلب الجولات باتجاه عقارب الساعة حول المنطقة.

صف من الأضرحة بمدائن صالح

وأول القبور هو قصر الصانع، وعلى الرغم من أنه ليس بدرجة كبيرة من الإثارة، إلا إنه بمثابة مقدمة للعناصر الرئيسة لطراز النبطي للقبور، وهي الواجهة العظيمة، والشكلان المكونان من خمس درجات، والنقوش في أعلى الباب وداخل القبر فتحات كانت توضع فيها الجثث وتقدم الخريمات عشرين ضريحًا بحالة جيدة من أفضل القبور المحفوظة في مدائن صالح، وهناك العديد من الرموز التي يبدو انها تربط أجيالا من التصوير الثقافي المستعار من الإخباش والمصريين، وغيرهم، وتظهر أشكالا تبدو كالغرفين «جسم أسد بأجنحة» برؤوس بشرية، وأشكالا تشبه الورود مرسومة على زبدية استخدمت ضمن طقوس مصاحبة للجنائز، وفي الخريمات بيوت مبنية من اللبن، وبئر نبطية.

ويقف جبل إثلب بشكل مثير على الأفق في الشمال الشرقي، ويحيط به فضاء واسع، وكما في مدينة البتراء بالأردن فلهذه المنطقة طريق ضيق يسمى «السيق»، ونحت داخل الصخرة صالة كبيرة مفتوحة تسمى الديوان، ومحاطة بعمودين وبعض المصطبات الحجرية على الجدران الثلاثة الداخلية، ونقلا عن المكتشف تشارلز داوتي في عام 1305هـ ،1888م، فقد كانت هناك عتبة، وقد سقطت مع مقدمة السقف، وهذه الغرفة باردة بشكل لطيف إذ تهب النسمات العليلة هناك دومًا، ولأن واجهتها شمالية فلا تدخلها الشمس، ويوحي المكان بشعور عميق بالأمن والهدوء، مما يجعل المكان مهيبًا بشكل كبير، ويمنح تسلق جبل إثلب منظرًا خلابًا على مدائن صالح، ويقع خارج قصر البنت رسمت حيتان داخل شكل مثلث لتمثل حارس القبر، وهذا مثال للتأثير اليوناني على الفن النبطي، وقد تم التوقف فجأة عن إكمال بناء هذا القبر، مما يعطينا نظرة على تقنيات البناء الذي كان من الأعلى إلى الأسفل، والوردية على هذا المدخل ونظائره تمثل طبقا مزخرفا يستخدم في المناسبات الدينية، مما يدل على أن هذه المباني قبور.

يعدُ القصر الفريد أشهر المقابر النبطية في الحجر، ومن أجمل المقابر النبطية عامة إذ يتميز بواجهة شمالية كبيرة جدًا، وسمي بالفريد لانفراده بكتلة صخرية مستقلة، وكذلك لاختلاف واجهته الكبيرة عن المقابر الأخرى في مدائن صالح، ويلاحظ دقة النحت وجماله في الواجهة، وعلى الرغم من هذا الجمال إلا أن القصر الفريد غير مكتمل النحت، حيث إنه لم يكتمل العمل في أسفل الثلث الأخير، وقد بني هذا القصر لشخص اسمه حيان بن كوزا.

منظر خلاب

نوافذ داخلية في الغرف

قصور منحوتة في الجبال